منازل

لكي يا منازل فر القلوب منازل

ثقافية أدبية مستقلة نصف شهرية | العدد /7/ | 1 أيلول 2013

منازل/www.facebook.com السعر (50) ليرة سورية

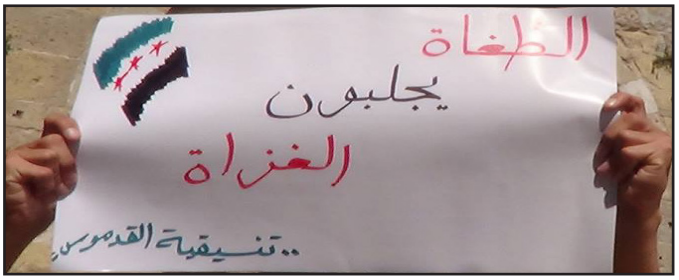

شقة على العظم!! 3

حقائق خارج كتب التاريخ الرسمية 4

قلمُ رصاصٍ وفراغٌ ونشوة 6

أيقونتان للثورة وللسلطة أيقونة واحدة 8

الفوضى الخلّاقة والمناطق المتوحشة 10

رش الدم 13

حق المعارضة في الإسلام 14

منازل الدنيا

الياسمين والسارين

إبراهيم العلوش

الياسمين لنا، ولنا الغوطة الخضراء، ولنا الهواء العليل في شامنا.. لنا المستقبل ولنا ابتسامات الأطفال الأبرياء التي خنقها السارين!!

مهما فعلتم ومهما تجبرتم فلا مكان لكم بيننا.. لم تعد الأماكن تتسع للسارين ولم تعد الحياة تتسع للقتلة وللمجرمين.. لم تعد الغوطة قادرة على الاصفرار الذي تتلون به وجوهكم الحقودة!!

أول مرة نرى من يحقد على الياسمين، أول مرة نرى من يغيظه اخضرار الغوطة, أول مرة نرى من يستبدل هواء دمشق العليل بغاز السارين المتسرب من أحقاده، إنه غاز السارين المختزن في رؤوسكم وفي أحشائكم أيها القتلة!!

هذه بلاد الشام التي تلقفت الإسلام ومنحت صحابة رسول الله رائحة الياسمين وبشاشة الأزهار ورقة الأنهار فانطلق الإسلام منها يرحب به العالم وينادي جماله وتسامحه من كل حدب وصوب!!

هذه بلادنا الجميلة البسيطة التي تتشبه بالجنة وبأنهارها وبأزهارها وبابتسامات أهلها.. هذه ليست بلاداً للحقد وليست مأوى للسارين أيها القتلة..

لنا الياسمين ولكم السارين.. الياسمين يفوح من ثيابنا ومن بيوتنا ومن ممرات دروب الغوطتين.. والسارين سيخنقكم.. وسيحيل حقدكم الأسود إلى رماد وستغدون نسياً منسياً!!

يا أيها الباغون.. لن نبقى جالسين ونندب موتانا الأعزاء.. سنطهر هذه البلاد من رجس سارينكم ومن أحقادكم التي ستلتف حول أعناقكم وتخنقكم..!!

دمشق!.. لا تأبهي بهم لا تأبهي بوجودهم الطارئ فأنت أم الزمان ومرفأ الحضارة وهم مجرد عابرين ومكبلين في وحل أحقادهم وفضاء سارينهم..

لأطفال الغوطتين ولكل شهدائنا الرحمة والجنان الفسيحة.. ولرجال الثورة السورية النصر والحرية..

3

منـازل ترصـد أحـداث الأعيـوج فـي ثـلاث حلقـات

الأعيوج ذاكرةُ الموتِ والنّار

(3)

أحمد رشاد

مَنْ ذا الّذي سيفكُّ طلاسمَ مأساةِ القرية المنسيّة؟ من بمقدوره القبض على الحقيقة في وضح الدّم والدّمع؟ من يجرؤ على اكتشافِ طريقه وسط الضّباب؟ مَن ذا الّذي ينقذُ ما تبقّى من البشر والحجر والذّكريات؟ مَن يستطيعُ أنْ ينسى تفاصيلَ المفقودينَ عن الرؤية والمشهد دونَ أثر؟ مَن بإمكانه الصّراخ عالياً في زمن الضّجيج المترع بالرّصاص والقذائف والموتى؟ مَن سيصبرُ على بلاءِ البلاء في زمن البلاءِ؟

سيولٌ من التّساؤلات تغزو تفكيرَ أهلِ المكان وزوّاره الّذين يمرّون على عجلٍ ويرحلون بعدَ أنْ يُبدوا بعضَ أسىً وكثيرَ حوقلةٍ وشيئاً من العزاء! لكمُ اللهُ أيّها القادمون من النّزوح إلى رائحة الموت والنار.

لم يكن بمستطاعِ أهل القرية النومُ في منازلهم في اليوم الأوّل ولا حتّى في اليوم الثّاني، فالمكان موحشٌ، والأزقّة مرعبة، والدّمُ مازال يجري ساخناً على ترابِ مربَى الطّفولة والصِّبا، وموجبات العيش غير متوفرة، فلا ماءَ ولا كهرباء وحتى غِذاء، فكلُّ ما في القرية راح ضحيّة النّهب أو الحرق أو التلف، وما تبقّى منه لم يعد صالحاً.

عادتْ بعضُ الأُسَر إلى القريةِ في اليوم الثّالث، كيف ستقضون ليلكم أيّها المنكوبون؟ هل سيمرّ الكرى بين أجفانكم؟ هل ستعرفون طعماً للنّوم؟ توزّعَ الرّجالُ في أرجاءِ القرية وتقاسموا نوبات الحراسة ومراقبة الطّرق التي تؤدّي إلى القرية خَشيةً من تكرار التّجربة من قِبل أحدٍ ما، فالخطرُ مازال خلفَ الأبوابِ وعلى مَقرُبة من العنقِ والوريد. تغلّبَ بعضُهم على المأساة وتعالى على جراحه، وبعضُهم كظمَ غيظَه وراحَ يصطنعُ لحظةَ الأمانِ والأمن ولكنْ دونَ جدوى.

كلُّ زاويةٍ من زاويا القرية تحملُ ذكرى عطِرةً تمَّ سحقُها، وصورةً بهيةً تمَّ تشويهُ تفاصيلِها الجميلة، باحاتُ المنازلِ (الحوش) لم تعدْ كما كانت، والحيطانُ حيثُ رائحة التراب المجبول مع "التبن" باتت كئيبةً، كلُّ شيء فقدَ رونقَه البريء، لا شيءَ يحتفظ بشيء من أمسِه الجميل. لم يسمع أهل القرية في هذه الليلة صوتَ الشّيخ "أبو ياسر" وهو يرفعُ الآذان منادياً لصلاة الفجر. لقدِ اختفى صوتُه إلى الأبد.

تعدّدت صورُ المأساة في القرية وتنوّعت أشكالُ الخسارة بين منزلٍ وآخرَ، كلُّهم منكوبون ولكن على اختلاف الشكل والمكان وعمق الجراح.

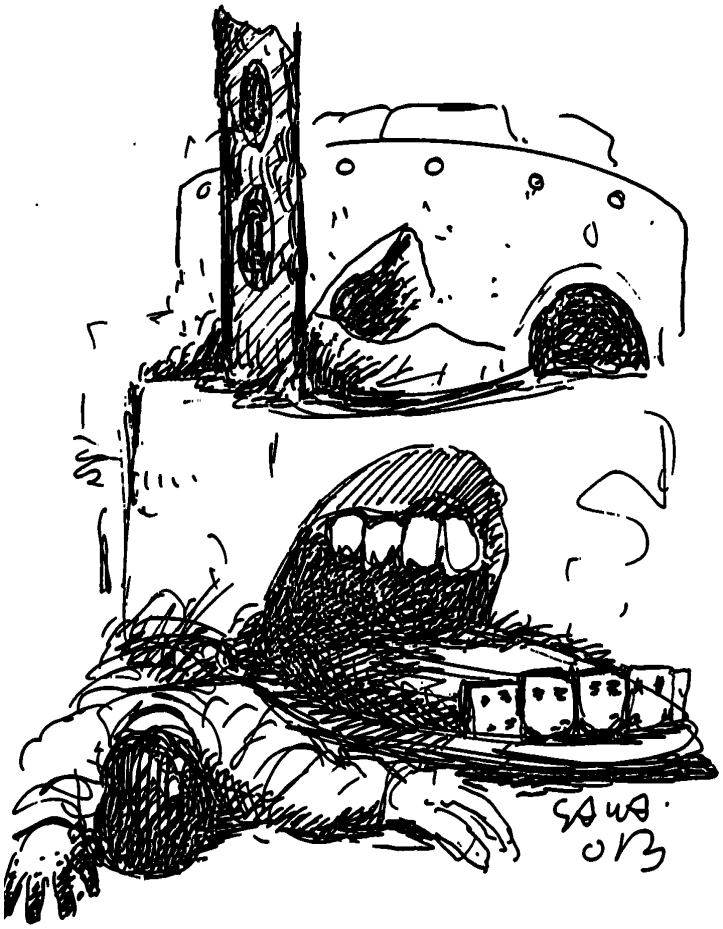

فقدَ أحمدُ كلَّ شقاء عمره, إنّه ذلك الشابُ الماهر الذي يمتلك المقدرة على إصلاح كلِّ ما يتعطّل في محيط عيشه وقريته، ابتداءً من إصلاح الهاتف النقّال مروراً بالأدوات الكهربائية والدّراجات الناريّة وصولاً إلى السيّارات والمحركات الزراعيّة. لم يجدْ أحمدُ شيئاً من أدواته التي كان يستخدمها كي يقدّمَ خدمة لأهل القرية ويكسبَ عيشه مقابل هذا. لقد تمَّ تحطيمُ طاولة الإصلاح بكل أجهزتها الإلكترونية والتي يتجاوز سعرها 300 ألف ليرة سورية حين اشتراها قبل سنوات، ورشة الإصلاح نُهبت، غرفته الوحيدة حُطِّمت.

لم يكنْ أحمدُ وحدَه منكوباً، كثيرون هم الّذين مثله، فالنِّسوة اللّواتي جمعْنَ شقاء العمر من أجل تأثيث منازلهنَّ، لم يعثرنَ على ما تعبن بجمعه عشرات السنين. لم يعد منزلُ حليمةَ كما تركتْه أنيقاً جميلاً، ثيابها ممزقة و"الزّبون" المخمل المطرّز بالقصب اختفى، إنّه من تعبها في حقل القطن، أمّا فاطمة لم تكن بأحسن حال من حليمة، فاطمة فقدت كلَّ مصاغها الذهبيّ الذي جمعت ثمنه من حليبِ وصوف أغنامها.

أمّ محمود وأيتامها الصّغار لا يمتلكون سوى أربعةِ جُدُرٍ وسقف وبقيّة من طحين لم تمرَّ به يدُ مخرّب، وبعض دجاجات وجدت ريشَها يتناثر في أزقة الحي.

حاول بعض أبناء القرية المقيمين في المدينة أن يستنهضوا

همَ لجان الإغاثة وبعض الجهات التي تصدّت لتسيير أمور المحافظة ولكن دون جدوى، فحجمُ المأساة أكبرُ من مقدرةِ جمعيّة خيريّة أو إمكانية تجمع للإغاثة، والخراب أوسع من أن يتكفّل بإزالته طرفٌ واحد.

الشّعاراتُ أكبرُ من الانجازات، والأقوال أبعد مدىً من الأفعال، والوعود غير قابلة للإنجاز، "العين بصيرة واليد قصيرة" لم يوثق أحد ما حدث ولم يحصِ غيره الخسائر، فهي على عهدها منسية في كل مكان وزمان، حالها كحال الرقة بأكملها.

في اليوم الرابع لعودة الأهالي إلى القرية توجهت قافلة مساعدات، تحمل 50 حصة غذائية، لم تكفِ الحصص الغذائية الأسر فاستغنى ميسورو الحال عن حصصهم للفقراء الذي ازداد فقرهم بؤساً. وقدمت إحدى السيدات المحسنات ألبسة لبعض أطفال القرية، وكان لأم محمود من يقدم لها مبلغاً مالياً بسيطاً يعينها على شيء من نوائب الدهر.

لم يتبقَ من منزل "أبو موسى" لقد احترق بأكمله ولم تعد غرف المنزل صالحة للسكن، تنادى الأقارب لمد يد العون، جمعوا له الفرش والألبسة وأدوات الطبخ وبعضاً من الأدوات الكهربائية المستعملة عسى أن يستطيع أن يتابع عيشه على أطلال منزله وذكرياته.

تغيرت مواقف كثيرين من أهل القرية، ومواقف أهالي القرى المجاورة، رأى الجميع بعينه ما حدث ونتائج مرور الجيش بهذا المكان المنسي. لقد اتضحت الصورة جيداً لم يكن يصرُّ على إنكار ما يحدث في غير مكان من هذا الوطن المذبوح.

مازال أهل الأعيوج ينزفون كغيرهم من السوريين، ومازال الخوف يلازمهم، معظمهم مستعدٌ للنزوح فوراً، فكلما سمعوا عن تحرك رتل عسكري ما دب الذعر بين أطفالهم ونسائهم وترى الجميع يتنادون للتأكد من صحة النبأ.

ومازال الألم يرافق الجميع ويلازمه الحزن والأمل بالخلاص.

شقــــة علـــى العظـــم!!

رأفت النون

بتاريخ 7/8/2013 وقع الانفجار الدامي الذي حصل في منطقة الإسكان (الادخار) أو البانوراما, أو حارة الضباط.. بصاروخ روسي لا يهم ما نوعه كما يدعي البعض, أو سيارة مفخخة كما يدعي بعض الآخر.. ولكل وجهة نظر مؤيدة لهذا الرأي أو ذاك دون تأكيد جازم.. وكان عدد الشهداء قد فاق عدد أصابع اليد رحمهم الله وأدخلهم جنته, والجرحى بين خمسين وستين شفاهم الله وأعان ذويهم من هذا المصاب الذي أصابهم كما أصاب السوريين أينما كانوا!!

نصل إلى موضوع الشقة التي صارت على العظم!

لي شقة طابق أول في البناء المقابل للتفجير مباشرة. لها واجهة جنوبية، وقد تعرضت شقتي مثل بقية الشقق إلى تهدم الواجهة والباب الخارجي وتحطم كافة الأبواب والنوافذ وقد شاهد الكثيرون ذلك سواء كانت المشاهدة عياناً أو على "اليوتيوب" ويعتبر هذا الضرر عادياً أسوة بثلاثة ملايين شقة تضررت في سوريا.

عند حضوري إلى المكان بعد يومين لأنني كنت خارج المحافظة وقت الانفجار رأيت العجب العجاب ليس من جراء فداحة الخراب والتهديم الذي حصل للبنايتين المتقابلتين وهو شيء فظيع طبعاً, لكن أن ترى الشقة على العظم بكل معنى الكلمة شيء آخر, فالشقة خاوية تماماً- لا حنفية لا مفتاح كهرباء لا شيء في المطبخ لا يوجد حتى مسمار واحد.. لا يوجد أبواب ولا شبابيك سواء كانت محطمة أو سليمة المطبخ مفكوك.. خزن ورخام وخلاطات.. وبدون مبالغة لا يوجد شيء على الإطلاق ماعدا بقايا البلاط المتناثر!!

بقيت كنبتان دون اسفنج. أين ذهبت كل الأشياء التي كانت في الشقة.. الأثاث والألبسة والبرادي والخزن والنوافذ والأبواب؟؟

لا أعلم!!

لن اسأل السلطات المحلية عن ذلك ولا عن واجبها في حماية البيوت عقب الانفجار لأننا لا نعلم من هي هذه السلطات بالضبط؟!!

ولكني أسأل الآباء (بعضهم) بغض النظر عن حالته المادية سيئة أم جيدة. ألا تسأل ابنك عندما يحضر وبيده سجادة أو مروحة أو قطعة كهرباء من أين أحضرها؟؟ ألا تقول له بأن هذا العمل هو سرقة.. أي جريمة يحاسب عليها دنيا وآخرة؟؟

يروى أن طيراً سأل نبي الله داوود، أن اسأل لنا ربك أهو مَهول أم عجول؟ فأجابه الله جلَّ جلاله بأني مهول!! بعدها مباشرةً طار الطير إلى مكان شواء لحم، والتقط قطعة لحم من المنقل وطار بها إلى عشه.. ولسوء حظه التصقت جمرة بقطعة اللحم، فاحترق العش كله فعاد الطير إلى نبي الله داوود فزعاً وقال: ألم تقل بأن الله مهول وليس عجولاً. فلماذا احترق العش فور سرقتي قطعة اللحم المشوي؟؟ فأوصى الله إليه بأن هذا العقاب عن ذنب سابق!!!

وأخيراً: لابد من أن نتساءل فيما إذا كان بعض الأبناء يسرق بتوجيه أو قيادة مباشرة أو غير مباشرة من آبائهم؟؟

الساعة الخامسة والعشرون 25/

ابتسام تريسي

حقائق خارج كتب التاريخ الرسمية

في كتاب التاريخ كتبوا لنا بضعة أسطر عن المناضل إبراهيم هنانو قائد ثورة الشمال، وأنّه تحالفَ مع الشيخ صالح العلي من أجل القضاء على المستعمر الفرنسي. أستاذ التاريخ لم يكتفِ بتلك الأسطر، كان يروي لنا الحكاية كما يعرفها.. ويضيف بأنّه عاصر الحدث عندما كان طفلاً!

خارج كتاب التاريخ، يقول الأستاذ: تم تقديم إبراهيم هنانو إلى المحاكمة، حيث طالب المدّعي العام الفرنسي في مرافعة طويلة بإعدام هنانو قائلاً: «لو كان لإبراهيم هنانو سبعة رؤوس بعدد جرائمه، لطلبت إعدام رؤوسه السبعة، ولكنّه لا يملك إلا رأساً واحداً».

استمرت التحقيقات حوالي ستة أشهر، وكان كلّ طرف يستعين بالوثائق والشهود دفاعاً عن وجهة نظره في القضية. وفي محاولة أخيرة من المحامي، بعث الأخير كتاباً ثانياً إلى الجنرال غورو يطلب فيه اعتبار هنانو تابعاً من الناحية العسكرية للجيش النظامي التركي الذي كان يمدّه بالسلاح والعتاد وبالتالي شموله بالعفو العام عن الجرائم السياسية التي ارتكبت أثناء العمليات العسكرية بين الفرنسيين والأتراك. فكان جواب المفوّض السامي بأنّ القضية قد أصبحت بين يدي السلطة القضائية العسكرية وأنّه لا بدّ من انتظار قرارها!

وبعد انقضاء ساعتين في غرفة المذاكرة عادت الهيئة المُحكّمة إلى منصة القضاء، فنهض المستمعون، وظلّ القضاة واقفين، وقد خيّم على الجميع جوّ من الرهبة والخشوع. كانت الأنظار كلّها مصوّبة إلى الرئيس الذي بدأ بقراءة الأسئلة:

. هل هنانو مذنب بتشكيل عصابة من الأشقياء للنهب والسلب؟

أجاب الرئيس على السؤال الأول بكلمة «لا»

كلما طرح الرئيس سؤالاً كان الجواب «لا» بأكثرية ثلاثة أصوات ضد صوتين من أصوات القضاة.

ولما انتهى الرئيس، وأعلن براءة هنانو، دوّت قاعة المحكمة بالتّصفيق الحاد، وعلت الهتافات في أرجاء دار العدل وباحة السراي والشوارع المجاورة مردّدة: فليحيا العدل، فليحيا هنانو.

خرج هنانو ليتابع ثورته ضدّ الفرنسيين وحقّق استقلال البلاد!

ما خاف من ذكره أستاذ التاريخ، رواه جدي حين سمع عام 2008 خبر إصدار بشار الأسد مرسوماً يقضي بتحويل بيت الشيخ صالح العلي إلى متحف يعرض فيه الأسلحة والألبسة وكل ما يخصه!

"كنت في الحملة التي ذهبت لمناصرة صالح العلي بعد حصار الفرنسيين له في الجبال. قاتلنا معه هناك لقناعتنا أنّ الهدف يستحقّ نسيان الماضي، رضينا أن نكون تحت إمرته بعد أن حاصره الفرنسيون بسبب سرقته لقوافل الميرة الفرنسية المتجهة من حلب إلى اللاذقية. صحيح أنّ الفرنسيين سرقوا كل شيء منّا.. لكنّ الشيخ صالح سرق الميرة وسرق الثورة أيضاً.. أصبح قائداً.. وكرّسوه في تاريخهم الرسمي كبطل!".

****

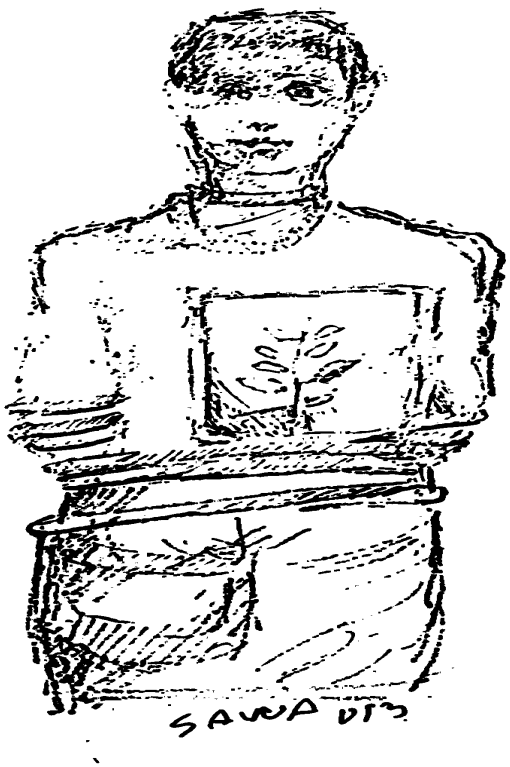

أربع رصاصات اخترقت جسد مشعل تمو لأنّه طالب بالحريّة.. دمه يسيل على الأرض في المستشفى.. أصوات بكاء.. الناس في الخارج تطالب بإعدام الرئيس!

لم يُترك مشعل تمو حياً لأنّه كان يريد تحرير سوريا!.. ما لم تستطع فرنسا فعله أيام الاحتلال مع إبراهيم هنانو فعله النظام السوري مع معارضيه بدءاً بمشعل تمو ولمّا تُسجّل النهاية بعد!

(ألقت السلطات القبض عليه في 15 أغسطس عام 2008، وبعد أسبوعين من اعتقاله، سلّمه فرع المخابرات الجوية في حلب إلى فرع الأمن السياسي في دمشق، وهناك أحيل إلى القضاء، فحُكِمَ عليه في 11 مايو عام 2009 بالسجن مدّة ثلاث سنوات بتهم "النيل من هيبة الدولة" و"إضعاف الشعور القومي" و"وهن نفسية الأمة".

أُفرِجَ عنه في شهر يونيو عام 2011 في محاولة لتهدئة حركة الاحتجاجات التي اندلعت في أنحاء البلاد. ألقى خطاباً من داخل سوريا أكّد فيه على "وحدة الشعب السوري". وقد تلقّى بعد خروجه من السجن عروضاً من طرف النظام بالمشاركة في مؤتمرات للحوار، فرفض ذلك، وأعلن تأييده للمحتجّين ضدّ النظام. وبعدَ تأسيس المجلس الوطني السوري لتمثيل المعارضة السورية في المجتمع الدولي أصبحَ عضواً في المجلس.

تلقّى تهديدات بالقتل منذ خروجه من السجن. لكنّه زاول عمله السياسي كمعارض للنظام، ولذلك كان يُحاول أن يتوارى عن الأنظار ويَتنقل بسرية. لكن في 7 أكتوبر من عام 2011 تمكّن أربعة مسلحين مجهولين من الوُصول إلى مكان إقامته، فقاموا باقتحام المنزل، وفتحوا النار عليه، ولاذوا بالفرار في أقلّ من دقيقة!.

صار لزاماً علينا حفظ كلّ تلك التواريخ.. كي نرى التاريخ على حقيقته!

الحر أنت لا سواك

خير الدين المرعي

مِنْ أينَ أبدأ؟!
من بكاءِ الليلِ منتصفَ النهارْ
عبثٌ يذوبُ على شفاهِ الأرض محضَ حكايةٍ
حيثُ المدى سكرٌ برائحةِ الدم
نُسْغاً تذوبُ الروحُ في دميَ المحلقِ كالفراشْ
نامتْ خيولُ أصابعي، ذبلتْ يداي
وغدا الكلامُ حمائماً كسلى، وأنهاراً تحاصرُها الضفافْ
وامتدَّ جسرٌ من سرابْ
بين الخليقةِ والإلهْ
دَخلتْ خيولُ الروم أحياءَ المدينة
هيَ ذي وحوشٌ من دم تسعى ويحرسُها الرعاة
من أين أبدأ من نحيبِ الطيرِ في مدن الضبابْ
جسدٌ هنا... ودمٌ هناكْ
والروحُ بينهما عصارة يقظةٍ لم توقظِ الأممَ الهزيلةَ
ولا النبيلة
والصمتُ مدية قاتلٍ نُحرتْ على يدهِ المدائنْ
والصامتونَ همُ الجناة
أحبو على جسدٍ من الذكرى, وذاكرتي دخانْ
أرسمْ على بوابةِ الحلم المدمّى كوكباً
شحبتْ مراياهُ وغامَ ضياؤهُ
مَن يوقظِ الجسدَ المحنّط من عويل الذكرياتْ
عنقي معلقة بخصرِ الريحْ
وعلى رصيفِ جراحيَ الثكلى حكاياتٌ تؤرّقها مرايا السنديانْ
في الشام, في أحضان سيدةِ المدائن قاتلٌ
ذئبٌ يدحرجُ غدرهُ لينالَ من عبق المكانْ
لكنّ أزهارَ البنفسج والخزامى لا تنامْ
والياسمينُ الحرُّ يأبى أن يُهانْ
يا أيّها الضوئيُّ في هذا الظلامْ
نَسيتكَ آلهةُ الجمالْ
نسيتكَ بابلُ والخمائلُ
نسيتكَ في وضح النهارْ
مدنُ العروبةِ والفرنجةُ والعقيدةُ والتتارْ
وكأنَّ موتكَ عادةٌ
دمُكَ النبيذُ لمن يشاءْ
وطنٌ يذوبُ على رؤوس أصابعِ الموتى فيأتلقُ الرمادْ
ويبادرُ الشهداءِ تذروها الرياحْ
والآنَ تعبرُ ضفةَ الأردنِّ, بل كلَّ التخومْ
وتلعنُ الأممَ العريقة,
تستضيءُ بصوتكَ المتخثّرِ الأصداءِ,
تصدحُ في الظهيرة والأصيلْ
فاربأ بنفسكَ أنْ تكونْ
حلماً تبعثرهُ العيونْ
غِبْ مرةً وأطلَّ من عبق انتظاركَ غيمةً
متْ مرّةً وأطلَ من فيض انتمائكَ عنوةً
أجلِسْ رحيلكَ كبرياءكَ في السهول, وفي الهضابْ
نَمْ تحتَ ظلّكَ فالقذائفُ لا تراكْ
نَمْ مطمئنَّ الروحِ, مشتعلَ الجراحْ
متْ واقفاً, ومهاجراً, ومرابطاً
كنْ شاعراً, أو قاتلاً,
المستحيلُ بأنْ تكونَهما وتبقى في ردائكْ
وَدَعِ القصيدةَ وحدَها تقتصُّ من زمن جفاكْ
الحرُّ أنت ولا سواكْ
والنهرُ أنتَ وما عداكْ...
زبدٌ تبعثرهُ السفائنُ حينَ تبحرُ في دماكْ
باطلٌ أن تنحني للريحِ أو تدعَ العواصفَ تستدلُّ على خطاكْ
موتُ الحمامِ سحابةٌ
لكنَّ موتَ الحرِّ ليسَ له شبيهْ
فاهنأ بموتكَ أيُّها الضوئيُّ في هذا الظلامْ
يا أمّنا لا تقرئي أجسادَ قتلانا
لأنَّ قصيدةً ستمرُّ عبرَ الجسرِ حاملةً لنا بُشرى النهارْ

قلمُ رصاصٍ وفراغٌ ونشوة

عبد القادر عبداللي

يُروَى بأنَّ معلّم اللّونِ الأمهرَ وأحدَ روّاد الانطباعيّة والحداثة الفنيّة سيزان قالَ مرّة: "هاتوا شيئاً من الطّين لأرسم لكم به جسدَ فينوس".

أفترضُ بأنَّ يوسُفَ عبد لكي أرادَ أن يحاكيَ "سيزان" عبرَ عبارتِه تلكَ، فماذا قالَ؟ نعم، نعم.. هذا ما كانَ سيقوله بالضبط: "هاتوا قلم رصاص لأرسم لكم الحريّة!". هل يمكن للحرية أن تُرسَم بقلم رصاص؟ بالطّبع هذا تحدٍّ عظيم، ويحتاجُ ليس إلى موهبة عظيمة فحسب، بل لشخصيّة مثقّفة عاشتِ الثقافةُ عمليّاً وليس مجرّد تنظيرٍ، ومَن الشّخصيةُ الّتي تجتمعُ فيها هذه الصّفات سوى يوسف عبد لكي؟

تألّقَ يوسف عبد لكي بالرّسم باعتباره ملوّناً ماهراً، ورسّاماً للأطفال تضجُّ رسومُه بالألوان ممّا يكحل عيونهم بشلّال لونيّ. ولكنّه اختارَ قلم الرّصاص لرسم لوحاته المتوسّطة والكبيرة. يا إلهي، لنتخيلْ رأسَ قلم مدبّب يمرُّ مرّات ومرّات على قياس 100×70 دونَ أنْ يتركَ مساحةَ مليمترٍ واحدٍ دونَ أنْ يمرَّ عليها! ما هذا الدّافعُ العظيم الّذي يمنحُه هذا الصّبرَ؟ إنّه صبرٌ من نوعٍ خاصّ لا يتحملّه سوى من يشعر بالنشوة أثناء عمله.

نعمْ، لا بدَّ من نشوةٍ تمنحُ الفنّانَ قدرةً على الصّبر لإنجاز إبداعاته. لقدِ اعترفَ النّحاتُ الانطباعيّ "رودان" بأنّه كانَ ينتشي جنسيّاً أثناء تشكيل الجسدِ الإنسانيّ بالطّين بأصابعه...

لم نحصلْ على اعترافٍ من يوسفَ عبد لكي حولَ النّشوةِ الخاصّة الّتي يشعرُ بها عندما يقطعُ بقلمه عشراتِ آلافِ الكيلومترات على مساحةِ اللّوحة... ولكن ليسَ من الصعب عليّ أنا العاشقُ لأعمال يوسف أنْ أخمّن. وأعتقدُ أنَّ الّذين يعرفون عبد لكي من خلالِ لوحاتِه أيضاً يمكنهم أن يخمّنوا. نعمْ إنّها نشوةُ الحريّة. لا يمكن إلّا لنشوةٍ عظيمة أنْ تكونَ حاملاً لصبرٍ كهذا.

يستخدمُ يوسُفُ عبد لكي الفراغَ الكبيرَ في اللّوحة، والفراغُ الواسعُ غالباً يكونُ من أجلِ إبرازِ العنصر الفنيّ. رسمَ يوسُفُ هذا الفراغَ وهو في زنزانةِ الخارج، زنزانةِ الحياة، أيْ عندما كانَ سجيناً طليقاً، مَثَلُه مثلُ كلِّ السّوريين، كلّهم دون استثناء حتّى جلاديهم، فكيفَ هو توقُه للفراغ والامتداد غير المتناهي إلى الآفاق؟ نعم، لم يكن العالم ليتّسعَ ليوسف، ولن يتّسعَ طالما أنَّ هناك وطناً أسيراً.. ولجَ يوسفُ لوحاتِه.. بعدَ ولوجه غادرها الأبيضُ وبقي الأسود.. أطبقَ عليه فراغُ لوحاته ليغدو جدراناً سوداءَ تكادُ تشعرُ بنشوةِ الجنس وهي تطبقُ عليه بوحشيتها. أبعدت عنه كل شيء... إلا شيئاً واحداً.. إنه الحريّةُ.. يوسُفُ حرٌّ شاءَ مَن شاءَ وأبى مَن أبى.. الفنّان هو عطاؤُه، وعطاءُ يوسف يتناقله مُحبُّوه في العالم كلِّه.. هل يستطيعُ جبروتٌ مهما بلغَ أنْ يسجن لوحاتِ يوسف عبد لكي؟..

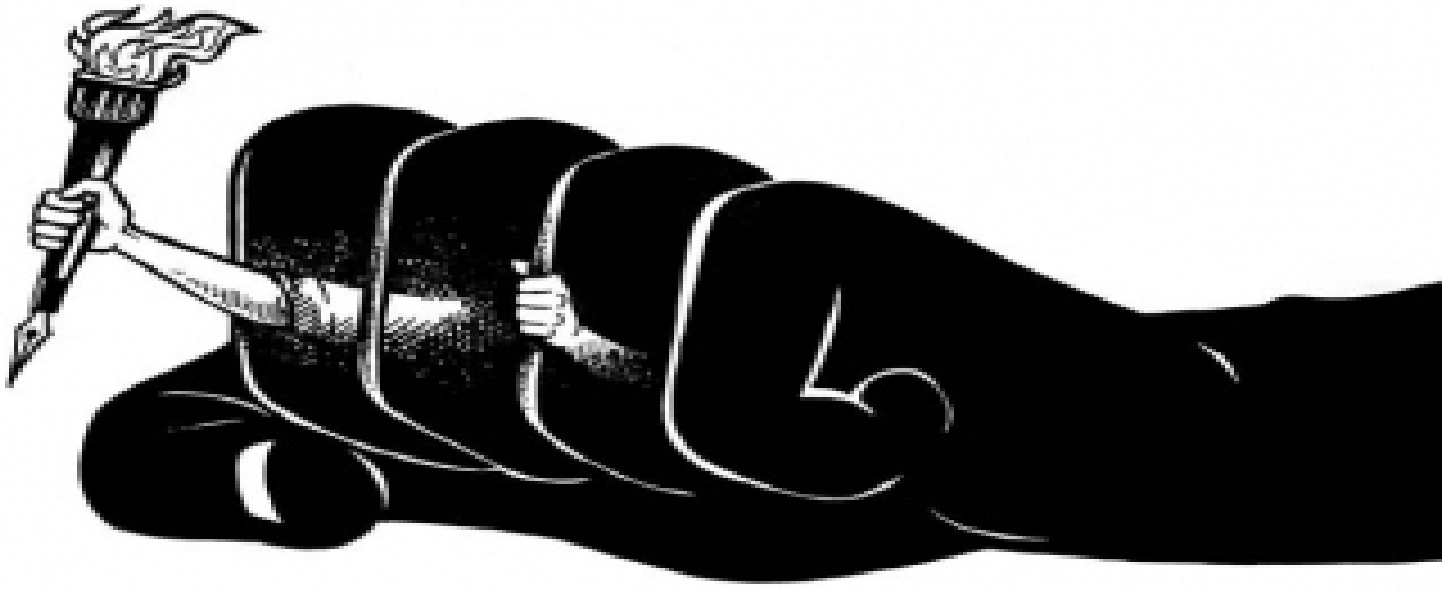

نصـــــــوص

د. نجاة عبد الصمد

أيمن...

كفتنة الموج يغزل خطواته بين السادة المترفين. مفتونٌ بشبابه، بصهيل الحياة في عينيه، وبطعم التفاحتين، والورد، والنعناع، والعنب، تمتزج كلُّها في رئتيه بطعم حريقٍ وطعم لقمة عيش.

*حاضر... جايي... يالله، يالله..

ويسبقه إلى تلبية النداء دخانٌ، وروائح مدوّخةٌ، ووعدٌ ببخشيش...

يتلملم كلطخة عارٍ ويركض هارباً نحو المطبخ حين يلمح معلمته تدخل من بوابة المطعم.

اسمه أيمن. طالب التمريض المتفوّق هذا، والمفتونٌ بشبابه، يفتن معلّمته أيضاً. عيناه، وعيون رفاقه الساخطة على زمنها الرديء تعدُ بجيلٍ قادرٍ على إكمال الدرب. سخطهم قناعُ يقظةٍ تمنح المعلمة إحدى حوافزها النادرة في مهنة التدريس.

ستخترع في درس الغد أية مناسبةٍ بلهاء لتحكي من غير أن تتطلّع إلى أيمن، أنّ المعلّمة التي صارت تمتلك بيتاً بعد طول عذاب، وتزيّن عنقها بسلسالٍ ذهبيّ؛ كانت يوماً ما، في عمرٍ أصغر من أعمارهم قليلاً، تبيع شتلات البندورة والفليفلة والباذنجان في سوق الخضرة، وتضمن من أرباحها الصغيرة مصاريف دراستها. وأنه حدث مرّةً أن مرّتْ زوجة خالها من السوق، ولمحتها الطفلة الصغيرة تلك، وأخفَتْ رأسها بين ركبتيها ريثما تبتعد زوجة الخال. وأنها اليوم، لو يعود بها الزمن إلى ذلك اليوم البعيد؛ لأبقتْ رأسها مرفوعاً...

كأنها في الثلاثين..

كأنها في الثلاثين، ملفوفةٌ بالسواد، لا كحل في العينين، ولا أحمر على الشفتين. ربما الوقت داهمها، وربما كانت في حداد. ترتجف برداً ودهشة بالمشوار. تخفت الرجفة حين تنشغل عيناها بخيطان المطر الفالت من غيمةٍ شاهقةٍ عابسة. يغشاها فزعٌ قديمٌ من ذاكرةٍ بعيدة. ترفع عينيها لتستعيذ، ولتشكر ربها والمطر على سعادة العيش، وسعادة الطريق الآمن. لا تأبه للأولاد المشاغبين حولها: ستّة صبيان بثيابٍ صيفيّةٍ باهتة يصيحون كجوقةٍ مدرّبة: هيييي... هيييي.... شتي... شتي... ويرتجفون ويضحكون، بلا سبب يضحكون. لا تزجر ابنتيها حين أخرجتا رأسيهما من الصندوق. تقول إحداهما لأختها التي مثلها تفرك وجهها بالمطر: هكذا سأصير أجمل، سيأتيني عريسٌ أجمل من حسّان. تصوّري سألته أمس: متى نتزوج؟ فماطلني إلى أن تنتهي الحرب؛ والحرب ستطول... وتضحكان كغيمتين أرضيّتين. لا تزجرهما الأم الغائبة في صلاة المطر، وفي هدهدة رضيعها الباكي في حضنها. ربما تقول هي الأخرى في سرّها: وعريسي أيضاً قد يعود، لابد ستنتهي الحرب وأعود لأبحث عنه هناك في حلب.

رأيتُ هذه الرؤوس العشرة محشورةً في صندوق سيارة بيك آب مرّت على الطريق. رأسان منها أخرجهما المطر والأحلام خارج الصندوق. يقود السيارة عجوزٌ نحيلُ بنظّاراتٍ سميكة، تترنح شاخصتها المعلّقةُ إلى الرفراف ببرغيٍّ وحيد على زاويتها اليمنى ضاع أخوه اليساريّ على الطريق، مكتوبٌ عليها: (syr ـ حلب) وتحتها ستة أرقام بالكاد تُقرأ.

تحـــت حجـــر

صلاح داوود

سكون الوعل في ليل الغابة ما يشبهني
الآن,
لحظة العصفور الأخيرة في فخ ما كان له
تنخر رأسي
إنها المصيدة عش الدبابير الذي يحيطني,
ما بين حرب وحرب يضيع الأصدقاء
تصير القرى سيفاً أو حبل نجاة,
أجمع خبزاً وحطباً كي لا أموت في الليل
وحيداً,
صمت الشمع الرصين يذيبني على حافة
النبيذ المتردد ما بين مرٍ ومرٍ
وعلى صفيح قارس أهمس للمرأة التي
تاهت في الجبال
ترقب العائدين من سهول مثخنة بالدماء
والصور الممزقة,
إنه الحلم الأسود حيث ما بين الليل والولد
ما صنع الرصاص,
إنسابي إليّ مرة أخرى كسيل لا يرحم
أو تدحرجي كحبة كستناء
إلى موقد روحي حيث لا تجدي ألاعيب
النبيذ
ولا المطر المتسلل كاللصوص القدامى في
تحطيم الفخ
وحيث الحياة صندوق صيني
حروب مشتهاة للغريب
حمقى يتبادلون الطرق وسلب أرواحنا,
أراوغ دائما بالحكمة الضالة
وبالجنون المهذب
لكن كوردة قاتلة تُطبق عليّ حياتي
الصفراء كي أبقى عالقاً في المصيدة...

أيقونتان للثورة وللسلطة أيقونة واحدة

عزت القمحاوي ـ مصر

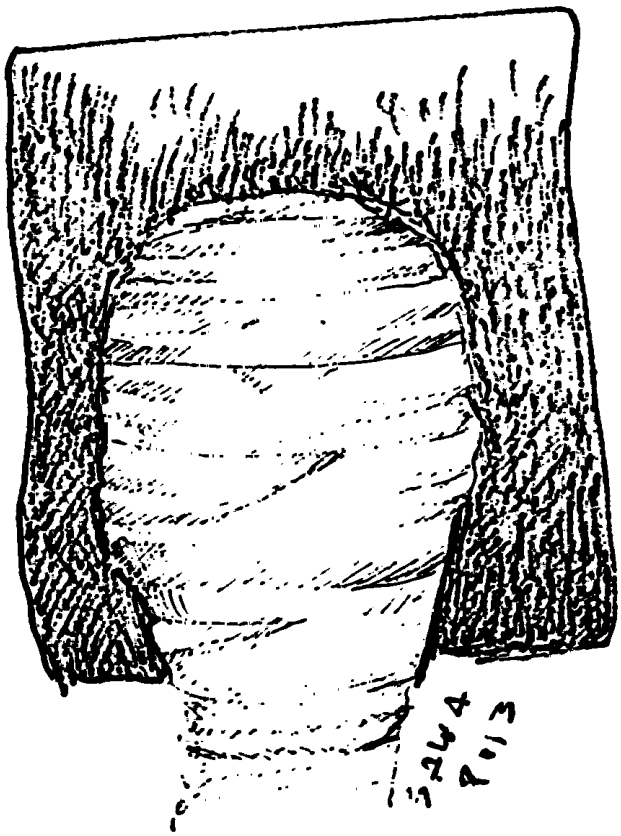

لو قدِّر لعالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو أن يعيش حتى يرى ربيع الثورات العربية؛ فمن المؤكد أنه كان سيراجع فيه موقفه من الصورة التليفزيونية، التي اعتبرها وسيلة للتلاعب بالعقول وتغييب الوعي.

بنى بورديو وغيره من علماء الاجتماع ومفكري اليسار في الغرب عداءهم للصورة انطلاقاً من حالة التسطيح المصاحبة لصعود التليفزيون في مجتمع لم يكد يفرح بتحقيق ديموقراطيته حتى انقضّت عليه الصورة لتقوض تلك الديموقراطية. ولم يتأخر الأمريكيان تيموثي ميتشل ونعوم تشومسكي عن فضح "هندسة الموافقة" وهي مسلك أمريكي نشأ منذ ثلاثينيات القرن العشرين، وهو باختصار يقضي بالسماح للمواطن بأن يختار رئيسه بحرية تامة، لكنه لن يختار إلا ما يحدده الإعلام له!

وما كان لبورديو أو ميتشل أو نعوم تشومسكي أن يتصوروا إمكانية نشوء أثر مغاير للصورة على مجتمعات في طور النمو كالمجتمعات العربية. وقد صار هذا الأثر ملحوظًا منذ بدء القنوات الفضائية العابرة للحدود، ثم جاء مولد إعلام المواطن عبر مواقع التواصل الاجتماعي على الإنترنت بمثابة الضربة القاضية لمنظومات العتمة القديمة، وكانت الصورة سلاحه الأبرز.

وقد بدأت كل من الثورتين المصرية والتونسية بصورة تحولت كل منها إلى أيقونة، وقد أغنت الأيقونتان المصرية والتونسية الثورات الأخرى عن اتخاذ أيقوناتها الخاصة.

أيقونة الثورة التونسية هي صورة محمد البوعزيزي، والأيقونة المصرية لخالد سعيد. وإذا كانت الثورة التونسية قد سبقت نظيرتها المصرية؛ فإن الأيقونة المصرية كانت أسبق إلى الوجود.

خالد سعيد، الفتى الوسيم تحول إلى رأس مشوه بوجه منتفخ يصلح وجهاً للشرطي الذي عذبه حتى الموت، وقد تحول موته إلى فضيحة أخلاقية معلنة للنظام، وبدأ مجايلو الفتى في تأسيس صفحته على الفيس بوك «كلنا خالد سعيد» وشاركتها في الاحتجاج مجموعات أقدم مثل مجموعة 6 أبريل، وهي المجموعة التي تؤرخ لنزول الشباب من العالم الافتراضي إلى الواقعي عندما قادت أحداث الاحتجاجات العمالية في مدينة المحلة الكبرى عام 2008 وهي المرة الأولى التي ديست فيها صورة مبارك بالأقدام.

وفي 2010 قاد الشباب حركات احتجاج على مقتل خالد سعيد، كان أعظمها مشهداً يوم تجمع عشرات الآلاف بطول كورنيش الإسكندرية وقد ارتدوا السواد وأعطوا وجههم للبحر، للأفق المفتوح، وظهرهم لليابسة، حيث يعشش حكم الخوف الذي يجب أن يزول.

في ذلك اليوم رسم الشباب المصريون الشكل الذي ستأخذه ثورتهم السلمية والأكثر تحضراً في تاريخ الثورات، حيث التعالي على روح الثأر وحيث الحفاظ على مؤسسات البلاد التي يأملون في تسلمها يوماً ما بعد رحيل نظام يعيش في عزلته وعالمه الافتراضي المغلق.

جسد وروح خالد سعيد صادرهما الأمن، بعد أن صادر النظام أحلامه وأحلام أمثاله من أبناء الطبقة الوسطى، الذين يتلقون

تعليماً جيداً ويجدون أنفسهم عاطلين بعد ذلك؛ لأن البلاد موقوفة لحساب حفنة ملياردیرات.

محمد البوعزيزي، أيقونة الثورة التونسية يشبه خالد سعيد ويختلف عنه بقدر ما كان النظامان البائدان يتشابهان ويختلفان.

البوعزيزي تخرج في الجامعة ووجد نفسه بائعاً جوالاً في الشارع، لكن السلطة لم تدعه فلاحقته الشرطية بالإهانة من دون أن تقتله، لكنه أقدم بنفسه على التخلص من جسده المصادر بالحرق. والصورة الأولى للبوعزيزي لم تكن صورة وجه . كما في حالة خالد سعيد. كان الفتى التونسي جسداً مشتعلاً في لحظات تقوضه وسط النيران، بعد ذلك اتخذ الجسد المحروق وجهاً؛ حيث تسابقت الفضائيات للبحث عن الملامح، وبدأ نشر البورتريه أثناء حوارات مع أفراد أسرته.

وهنا يتبدى الاختلاف بين الأيقونتين. خالد سعيد ابن ثقافة الفرد صودرت حياته عنوة، والبوعزيزي ابن الجموع التي بلا ملامح، تُسرق حياته يوماً بعد يوم، وفي لحظة تعاظمت فيها السرقة قرر أن يتخلص من جسده ليحرم الجلاد من التمادي في إهانته.

وقد أحس الفقراء المصريون بأنهم أقرب إلى البوعزيزي منهم إلى خالد سعيد؛ فاندفعوا في محاكاة البوعزيزي وتوالت عمليات حرق النفس أمام البرلمان والأماكن المشهورة إعلامياً.

النظام من جهته لم يقصر في تسخيف عمليات الاحتجاج بحرق النفس، وعمد إلى تشويه أصحابها على طريقة التجريس المملوكية؛ فهذا أشعل النار في نفسه لأن امرأته طلبت الطلاق، وذلك لأن ابنته اختفت مع عشيق، كما كانت الفتوى جاهزة بتكفير من يقتل نفسه.

وفي الوقت ذاته لم تصادف محاولة استنساخ الأيقونة التونسية تجاوباً مع الشباب المتمسك بأيقونته الأصلية؛ فخالد سعيد كان يريد أن يعيش، ورفاقه يحتجون لكي يطهروا مصر لتكون حياتهم فيها أفضل، لا لكي يموتوا.

السلطة على خلاف الثورة لم تعثر على أيقونتها الخاصة من البداية. هناك الكثير من اللقطات لوجوه السلطة التي ركزت عليها إشارات الفضائيات، مثل ارتعاشة زين العابدين «فهمتكم» وتنغيمية مبارك المفرطة في الاطمئنان: «لم أكن أنتوي الترشح» أو الصورة الباسمة التي انتشرت على الفيسبوك تسأل عن الرجل الواقف خلف عمر سليمان.

لم يعمر وجه أو قفا ليكون أيقونة للسلطة الزائلة، ربما لأنها بطبعها تفتقد الوجه الإنساني؛ فكان من العدل أن تبقى بلا وجه. وكان لابد لأيقونة السلطة أن تأتي متوافقة مع طبائع الاستبداد العربي الجديد؛ الاستبداد الاقتصادي المحروس بالعنف الأمني.

لكن السلطة وجدت أيقونتها في تونس بعد نجاح ثورتها والثورة المصرية. ولم تكن تلك الأيقونة سوى غرفة المضبوطات في قصر زين العابدين بمنطقة سيدي بوسعيد؛ غرفة تشبه مغارة علي بابا، بما حوت من سبائك وساعات يد وأوراق نقد من كل الفئات والعملات.

ما حاجة الإنسان في جيل أو جيلين أو ثلاثة لكل هذه الكنوز؟ من أين سيأتي بالوقت الذي سيرتدي فيه كل هذه الملابس ويأكل فيه بكل هذه الأموال؟ وهل يمكن للعمر أن يتضاعف إذا ما تم حسابه على هذا العدد المخيف من الساعات؟!

الفوضى الخلّاقة والمناطق المتوحشة
ـ الرقة أنموذجاً ـ

خلف الجربوع

النّظام يولد من الفوضى: أحد أهمّ المبادئ الماسونية (1) لإعادة تشكيل العالم وفق رؤيتها الخاصة من أجل السيطرة عليه.

المناطق المتوحشة: رؤية نظرية لفرقة إسلامية (2) تعتقد أنّه من خلال هذه المنطقة تستطيع أن تتحرك لإعادة بناء دولة إسلامية مجاهدة.

هذان التعريفان البسيطان لهما دلالات عميقة من الناحية المعرفية، إذ نعتقد أنهما ينتميان إلى جذر معرفي واحد وقديم (غنوصي)، نشأت وتطوّرت أو انغلقت من خلال تمثّله فرقاً وطوائفَ سرية عبر التاريخ القديم والحديث والمعاصر (حراس الهيكل، فرقة الحشاشة، فرسان الطاولة المستديرة... الخ)، وأخرى حديثة النشأة (حركة البنائين، التكفير والهجرة، ولاحقاً تنظيم القاعدة وبتسمياتها المحلية المختلفة)، استمرت وتناسخت عبر صور جديدة لكنها في جوهرها (نُسَخ متكررة جوهرياً لأنّ الأصل يتكرّر في الصورة)، تحمل الأفكار ذاتها من أجل صياغة العالم وفق رؤيتها والسّيطرة بالقوة أو بالهيمنة عليه.

من هذه العجالة نستنتج أن مفهومي الفوضى الخلّاقة والمناطق المتوحشة هما وجهان لعملة واحدة وأهدافهما مشتركة وإن اختلفت التسمية والحامل. ومن خلال التطبيق العملي لهذين المفهومين على الأرض، ومن قبل قوىً مختلفة وبدعم دولي، كانت الرّقة الهدف المثالي لتجربة فريدة من نوعها في لحظة تاريخية مفصليّة بالنسبة لصراع بين حاملي هذين المفهومين (أحدهم سيخرج من الصراع في أرض الرقة وسينعكس ذلك ليس على بلادنا فحسب بل وعلى مستقبل العالم).

الرقة مدينة معظم سكانها من المسلمين، لكن لا نستطيع أنْ نطلقَ عليهم صفة المحافظين (بالمعنى الديني) بل الغالبية العظمى تنتمي إلى المذهب الشّافعي (شكلاً)، أمّا في الجوهر ذوو انتماء هجين بين الصّوفية (المختلطة) والمذاهب الإسلامية الأخرى، وهذا الانتماء الجوهري يعكس صورة التركيبة السكّانية أيضاً، إذ أن سكان الرقة خليطٌ من أبناء العشائر الذين استقروا فيها ومن مهاجرين قدموا من مناطق تركيّة (معظمهم قدم واستوطن المدينة عام 1869) ويسمّون محلياً (القول) ومن صنايعية وصيادي ثروات ومغامرين قدموا من مدن سورية عريقة (حلب) أو من أرياف هذه المدن، الذين لازال انتماؤهم وولاؤهم لمناطقهم (من حيث اللّهجة والعادات في المأكل والمشرب.... الخ) يشكّل عائقاً أمام اندماجهم بأبناء الرقة من التشكيلات السكانية الأخرى الأقدم استقراراً بالمدينة (الشوايا – أبناء العشائر) و(المهاجرين/ القول)، وهذا الحاجز لم يجسّر أبداً مع معوقات أخرى (لا مجال لمقالة معالجتها) مما أنتج سلبية كبيرة انعكست على الهوية الرّقية التي تنازعتها هويات صغيرة متعدّدة الانتماء ومتناقضة لا ترقى لتشكيل هوية واحدة، ذات صفات جامعة، وهذا يفسّر الانتقال العنيف من العلمانية المفرطة إلى التديّن المتشدد وبالعكس، وقد كان النظام الأسدي يعي ذلك جيداً وجرّب كلّ أشكال السيطرة عليه وتدمير بناه الاجتماعية (مادة للتجريب)، والآن الرقة هي ساحة لأخطر وأكبر تجربة تقودها قوى ذات امتدادات دولية من خلال تشكيلات عسكرية ومدنية.

إن التشكيلات العسكرية في المدينة متعدّدة الولاء والايدولوجيا (بالمعنى السياسي)، وهذا التنوع في الواقع

الرقة مدينة معظم سكانها من المسلمين، لكن لا نستطيع أنْ نطلقَ عليهم صفة المحافظين

تنوع ظاهري، لكنه ينقسم إلى تشكيلين أساسين:

1. تشكيلات عسكرية إسلامية متشددة (سنية المذهب/ مختلفة في الولاء السياسي).

2. تشكيلات الجيش الحر (سنية المذهب شكلاً/ علمانيّة في الجوهر) يضاف إليها كتائب ذات إيدولوجيّة إسلامية غير متشددة أو تكفيريّة.

وإنّ هذه التشكيلات هي في حالة صراع وتجاذب حول إدارة المدينة وريفها مع بعضها أحياناً أو مع قوى مدنية غير مسلحة، وفي أحيان أخرى يأخذ شكلاً دموياً، عندما يريد أحد الأطراف التوسع في النفوذ أو إزاحة جهة من الطريق، لكن في الواقع هو مجرّد صراع ظاهريّ وشكليّ وغير جوهريّ، لأنّ التجربة تقتضي هذا الشكل من الصراع، ولأن أصحاب القرار الدوليين هم من يحرّك خيوط التجربة (نشر الفوضى والتوحش).

إن معظم القوى المدنية لها ارتباطات دولية من خلال ارتباطها بداعمين خارج الحدود وبعضهم مجرّد وسطاء لقوىً سرّية تشارك بفاعلية بالتجربة ولهم أهداف مشتركة جوهراً وشكلاً (يولد النظام من الفوضى)، وإنّ هذه الشراكة ستؤدى إلى نتائجَ أولية خطيرة:

1. انتشار الفوضى. من خلال تنازع وصراع القوى المدنية، بحجّة الأحقية والشرعية الثورية.

2. وجود منطقة توحّش. من خلال إيجاد حيّز جغرافي غير آمن ومهيمَن عليه من قوى عسكرية متشددة ذات قدرات عالية في الحركة والتنقل داخل هذا الحيّز، بحجّة تأمين منطقة تكون أنموذجاً ولتنمية مقدراتها العسكرية واللوجستية للانتقال إلى مرحلة تالية لمشروعها.

إن الصراع المستتر والظاهر الذي يدور، وتبدّلات موازين القوى للتشكيلات العسكرية خلال عدة أشهر ما هو إلا أطوار من التجربة التي يتمّ اختبارها بالرقة من خلال هذه القوى التي تريد إنتاج وتكريس منطقة توحّش.

وكذلك بعض القوى المدنيّة المشاركة بهذا الصراع تساهم (إن وعت ذلك أو لم تعِه) بفاعلية بخلق منطقة فوضى تسمّيها القوى الدّاعمة لهذه التجمعات بمنطقة الفوضى الخلّاقة التي سيولد منها نظام، تستطيع هذه القوى رسمه والسّيطرة عليه.

أخيراً إنّ نجاح التّجربة بأحد شكليها، ذو نتائج مدمّرة للقوى السكانية والمجتمعية (مادة التجربة)، إذ أنّه سيزيد تفكّك هذه القوى السكّانية وقسرها على الانتقال والانتظام داخل مشروع ليس لهم قرار في رسمه أو إدارته، ولأن نتائج الصراع بين حاملي المفهومين (النظام يولد من الفوضى ومنطقة التوحش الأساس لاستعادة التاريخ المشرق) سينتج سلطة ليس لها قرار وطني/ سوري مستقلّ، وذلك لأن النظام الناتج كمحصلة لهذا الصراع مرتبط بمراكز قوى دولية، وهذا يعني أنّ القرار الوطني مجرّد رقم مهمل في المعادلة.

هوامش:

(1) . هي جمعية اتّحاد البنائين التي نشأت في أوروبا في شكلها المعاصر وانتقلت إلى أمريكا، وهي تهدف إلى تشكيل العالم وفق رؤيتها والسيطرة عليه وهي حركة لا دينية.

(2) . أولى الحركات الإسلامية المتشددة التي نادت بإيجاد هذا النوع من المناطق هي تنظيم التكفير والهجرة.

رش الـــــدم

شريف صالح ـ مصر

البشر منذ أن رأوا وجوههم على الماء، وفي عيون بعضهم البعض اكتشفوا أنهم من الممكن أن يتفاهموا بالإشارة أو حتى بإصدار أصوات مبهمة. لكن هذا بالطبع لم يمنع حدوث مشاكل، لأن أدوات التواصل كانت بدائية جداً مثل بدائية أواني الطهي. لكن البشر، حتى ولو لم يكونوا أقوى الكائنات ولا أذكاها، بذلوا جهداً لتحسين أدوات تواصلهم، إلى أن اخترعوا اللغة.

ساعتها أصبح بمقدور كل إنسان أن يقول ما يدور في نفسه، ويحدد طلباته، وعلى الطرف الآخر أن يقبل أو يرفض. طبعاً هذا لم يمنع استمرار حدوث مشاكل، وسوء فهم رهيب أدى إلى ضرورة تصنيف الناس كي يتم فهم كلام الشخص تبعاً لتصنيفه.. هل هو من الحلفاء.. الأهل.. الأصدقاء.. أو من الأعداء بالضرورة. نفس السؤال الذي ظل صداه يتردد في أذني من أحد برامج الإذاعة المصرية القديمة: "عدو ولّا حبيب؟!"

فماذا يحدث إذا اختلف اثنان على آنية طعام من الفخار، هل يظلان يتكلمان إلى ما لانهاية حول الأحق بها؟ لهذا السبب وقع القتل. واستمر في الوقوع، في كل لحظة استحال فيها الكلام بين طرفين. ولنكن أكثر دقة، القتل حدث قبل ذلك بمراحل. فهو، وإذا تجاوزنا الإدانة الأخلاقية، أداة فعالة في التواصل، بمعنى أنه يشترط أن يوجد القاتل والقتيل في حيز مشترك، ثم يمارس كل منهما طقوسه للنيل من جسد الآخر واهدار دمه.

كلها أدوات تواصل، لا فضل لإحداها على الأخرى، ولا تلغي هذه تلك.. فالبشر ما زالوا يتواصلون باللغة ـ رغم ما تسببه من سوء فهم فادح، ورغم العجز حتى اليوم عن اختلاق لغة مثالية يتوافق عليها الجميع ـ ويتواصلون أيضاً بالإشارة التي توارثوها عن أجدادهم البدائيين.. أو بالقتل إذا بلغ سوء الفهم أقصى درجات السوء. لستُ من اخترع جملة أن الناس تتفاهم بـ"الكلمة أو القتل"، فهي فكرة أساسية لدى علّامة التحليل النفسي مصطفى صفوان، ناقشته فيها ذات يوم في إحدى زياراته إلى القاهرة، وهو لديه كتاب مهم بعنوان "الكلمة أو الموت".

وكان أول من لفت نظري إلى أن أهم أسباب سقوط "يوتوبيا" الاتحاد السوفيتي، هو القتل.. لأن كل قطيع عدوه من خارجه، فالغزال لا يقتل غزالاً، عدا الإنسان فهو ينتمي إلى قطيع عدواني بطبيعته، "عدوه منه فيه، وقاتله من بني جلدته".

هنا تصعب جداً مهمة فصل القاتل عن القتيل، مثلما يخلط كثيرون بين أيهما قتل الآخر: "قابيل أم هابيل"؟.. خدعة مأساوية، فمن نتعاطف معه على أنه ضحية قد نكتشف في أية لحظة أنه القاتل.. ومن يرفع شعارات التواصل بالكلمة، هو من يظل طوال الوقت يسن خنجره في الخفاء.

"حتى أنت يا بروتوس"، هكذا من حيث لا يتوقع القيصر، ولا أنا ولا أنت.. فعلينا أن نحتاط إلى سلوك القتل، ليس بوصفه وحشياً ومدانا، بل بوصفه لصيقاً مرعباً بالذات الإنسانية، وقادراً على إرهاق توقعاتنا، وعلى التحول، والتحور، والتجلي بصيغ لا تخطر على البال، مادياً ورمزياً.

ربما لم تتفق الثقافات البشرية كلها مثلما اتفقت في الإعلاء من طقس الدم وتقديم الذبائح والقرابين ضمن طقوسها الدينية، قد يكون القربان فتاة لم يمسسها ذكر، أو طفل لم يعرف العيب ولا الذنب. وكأن البشر ليسوا وحدهم المتعطشين إلى الدم، بل الآلهة أيضاً تطلبه بكل طقوس القداسة الممكنة. وربما تكون متعطشة له أكثر من تعطش "دراكولا" نفسه. وهذه المسألة تؤرقني منذ أن كنت طفلاً صغيراً في قرية نائية وسمعت الفلاحين يتهامسون بأن "آلة الطحين" الضخمة مسكونة بالأشباح ولن تعمل إلا بتمرير دم طفل علي سيرها الجلدي. معقول! البشر والآلهة، والأشباح أيضاً.. الجميع يتشهى الدم!

دم مطلوب للثأر، للطمع، للمقدس، لهوس العفاريت بنا..

دم لكثرة ما أريق يتطلب أن نعيد النظر جدياً في تعريف "من هو الإنسان؟".. بالتأكيد هناك تعريفات ذائعة ـ رغم الجدل الأكاديمي بشأنها ـ بوصفه الكائن الوحيد العاقل، الكائن المتكلم، الكائن الاجتماعي.. لكن التعريف المؤكد بالنسبة لي أنه "الوحش الأشد فتكاً، القادر دائماً على ابتكار أدوات القتل، وتبريره، وجعله مقدساً". تاريخ الإنسان كله سار هكذا: قاتل ومقتول.

ثم توسع من عمليات قتل فردية وبائسة، أو تتم على نطاق محدود في المعابد المقدسة إرضاء للآلهة والأشباح والشياطين،.. إلى اختلاق الحروب باعتبارها أكبر حفلة بشرية للدم. القربان البشري الأعظم، الذي بالكاد تتخلله فترات هدنة عابرة.

ولا تحتاج الحروب كي تندلع شرارتها الكامنة سوى إلى مبررات واهية جداً، أو مضحكة مثل قتل الدوق فرانز فرديناند، أو ذبح ناقة البسوس، أو هروب هيلين الطروادية مع عشيقها.. أو قيام بضع أطفال في درعا بكتابة كلمات على سور مدرسة لا تروق لرئيس فرع المخابرات هناك.. كلها مبررات واهية لاستجابة غريزية، وقد نبحث لها لاحقاً عن مبرر، مثل أن يشن صدام حرباً ضد إيران، دفاعاً عن بوابة لا وجود لها!

فالبشر، حتى دون أن يشعروا، تواقون للمشاركة في القرابين المقدسة، ولعب أدوار مميزة في أكبر حفلات الدم. وطالما في داخلهم هذا التوق الخفي، فعليهم أن يقبلوا برحابة صدر أحد الاحتمالين: يا قاتل يا مقتول. بالطبع يدرك الإنسان أنه ميت اليوم أو غداً، لكن الموت على الأقل طريقة سلمية في إنهاء الحياة، مجرد صدفة لا يُسأل عنها أحد.. لكن القتل، طريقة غير سلمية، تشير إلى شخص ما، يقبع في مكان ما، أعطى لنفسه الحق أن يقتلك، واحتفظ لنفسه بالأسباب التي تجعل قتلك منطقياً وقانونياً وأخلاقياً، ومقدساً إذا لزم الأمر.

للأسف إنسانيتنا مغموسة في الدم بشكل محزن، تتشهاه، وتعتبره وسيلة تواصل ناجعة ستلقن الآخر درساً لن ينساه. ولا أعرف طرقاً ناجعة، لإيقاف هذه الجينة الدموية المتوارثة. قد يكون الفن ساهم في تذكيرنا بوحشيتنا، والتنديد بها، حثنا على علاج كل طقوس الذبح المقدسة وحفلات القتل الجماعية التي شاركنا فيها نحن وآباؤنا، باسم الله والقائد والدولة والقانون والمذهب.. شجعنا أن نتحرر قطرة قطرة من تلك الطقوس وصداها في أرواحنا.. وأن نقبض على السفاح الصغير القابع في إحدى زوايا القلب، مستعداً في أي لحظة لرش القدر الكافي من الدم.

هذا الرعب تسلل بكثرة إلى مسرحيات شكسبير قبل أربعة قرون، كما تسلل إلى الأفلام الهوليوودية وألعاب "الفيديو جيمز"، فكثرة مشاهد العنف تعني دائماً مزيداً من الأرباح، وتلبية رغبات البشر وآلهتهم وأشباحهم. مع ضمان تنفيذها بأساليب متقنة تضمن عودة المقتول إلى الحياة عقب انتهاء المشهد.

كما تمارس قنوات التلفزة التأريخ البصري المشوق للدم، إلى درجة أننا نخشى عندما نستيقظ من النوم أن يكون قد فاتنا مشهد قتل مثير على هذه القناة أو تلك. ويحرص المخرج المخلص على توثيق المجزرة، بأكثر من كاميرا، وأكثر من زاوية.. فالقنوات أيضاً، مثل الآلهة، تتشهى هذه المشاهد التي تعجب الجمهور، عدا عن كونها تضاعف أعداد المعلنين المتلهفين لتمرير إعلان مدته خمس ثوان بين مجزرة وأخرى.

ومع الإعادة، في نشرات الأخبار التالية، يتاح للجمهور المتحضر والمسترخي في بيته أن يعيد قراءة تفاصيل المجزرة، للتأكد من الجديد في أساليب وأدوات القتل، وإحصاء عدد القتلى بنفسه، والتمييز بين وضعية استسلام القتيل واستسلام المصاب، وحسد من نجا واستطاع أن ينطق بكلمة أو كلمتين للمذيع، كلها تفاصيل ضرورية، لا تضفي المصداقية على القناة فقط، بل تضفي على المجزرة ذاتها، طابعها الدرامي المحبب، وفقاً للإرث الشكسبيري.

ومع الوقت، يصعب التمييز: هل تساعدنا الأفلام و"الميديا" حقاً في التحرر من لعنة الدم أم إنها تكرس التبلد واعتبار "رش الدم"، فعلاً يومياً، وعادياً، مثل السعال فجأة والغمز للجارة في الباص؟

في فيلم "لا وطن للعجائز"، يقف البطل القاتل "خافيير باردیم" أمام بائع مسكين، ويتبادلان حواراً عادياً جداً، لكن البائع يتوتر ويجتهد في إخفاء ذلك.. فثمة حوار آخر، خفي، ودموي، تتبادله عينا الرجلين.. أيقن البائع أن أقل خطأ قد يطيح برأسه، برغم أن القاتل يقف أمامه هادئ الملامح، لا يشهر مسدساً.. ثمة شيء ما، بدائي، وحشي، قابع في نظرة عينيه.. ثم يخرج "باردیم" قطعة عملة معدنية ويطلب من البائع بهدوء شديد أن يختار أحد الوجهين.. فعملية القتل كلها توقفت على ضربة حظ.. تبعاً لنية مضمرة في رأس القاتل: الوجه أم الكتابة؟ فعل القتل الذي يتشهاه القاتل بشدة .

في تلك اللحظة . توقف على صدفة بالغة التهافت.. على رفة العملة في قبضة يده. لكنها كانت كافية جداً كي يستحضر البائع كل تاريخ الدم المخبأ تحت جلده المذعور.

حـــق المعارضـــة فـــي الإســـلام

محمـــد الغـــازي

من يستقرئ تاريخنا الإسلامي يجد أن المسلمين لم يختلفوا في الدين ولم تنشأ فرقة من الفرق الإسلامية بسبب الخلافات حول عقيدة من عقائد الدين أو أصل من أصوله وإنما كانت السياسة وفلسفة نظام الحكم ومنصب الخليفة واختلاف المناهج في سياسة الأمة هي أسباب أخلاقية.

وإننا نورد المثال التالي كشاهد على حق المعارضة المشروع الذي أباحه الإسلام, فعند وفاة رسول الله (ص) اجتمع الأنصار من الأوس والخزرج في سقيفة بني ساعدة واجتمعت كلمتهم على اختيار سعد بن عبادة خليفة لرسول الله (ص) على الدولة الإسلامية كونه صاحب رسول الله (ص) والمبايع للرسول في بيعة العقبة وكونه زعيم الخزرج.

ولما بلغ الخبر عمر بن الخطاب استدعى أبا بكر وأبا عبيدة بن الجراح فعرض أبو بكر رأيه على الأنصار بأن المهاجرين القرشيين هم الأسبق إلى الإسلام وأقرب إلى النبي (ص) وهم الأحق بخلافة رسول الله (ص) فمالت الأوس إلى رأي المهاجرين الأولين وتمت البيعة لأبي بكر إلا أن سعد بن عبادة لم يبايع أبا بكر ولم يبايع عمر بن الخطاب من بعده وظل يقف موقف المعارضة منهما حتى توفاه الله.

فهذا الصحابي الجليل سعد بن عبادة عاش دون أن يبايع الصديق بالخلافة ومات وليس في عنقه بيعة للخليفة الفاروق.

وهنا نتساءل أليست هذه هي الديمقراطية التي سبق الإسلام إليها الأمم الأخرى والتي تتغنى بها المجتمعات المعاصرة الحرة عندما يتنافس المتنافسون على رئاسة الدولة بالاقتراع والانتخاب فيفوز من يحوز على ثقة الأغلبية وتظل الأقلية في موقع المعارضة له وتنتظر حتى يحين حق الترشيح لانتخابات جديدة؟.

وإن كثيراً من الجماعات الإسلامية الجديدة يرددون أحاديث الرسول (ص) التي توجب الطاعة للأمراء حيث يتذرعون بحديث رسول الله (ص): "من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له, ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية".

ولكن هذه البيعة التي تحدث عنها رسول الله (ص) هي بيعة الذين آمنوا بخطاب رسول الله الذي دعاهم إلى لإيمان والإسلام, إنها البيعة التي خرجوا بها من الجاهلية إلى الإسلام.

ويحكي لنا التاريخ الإسلامي رفض رهط من بني هاشم مبايعة أبي بكر والتفوا حول علي بن أبي طالب فغضب عمر بن الخطاب وخاطب علي في حضرة أبي بكر قائلاً: "إنك لست متروكاً حتى تبايع" فتدخل أبو بكر موجهاً الحديث إلى علي قائلاً: "إن لم تبايع فلا أُكرِهُك" واستمر علي في رفضه البيعة لأبي بكر بضع أشهر ثم بعدها بايع أبا بكر بالخلافة والإمارة للمسلمين.

وهكذا يثبت مرة أخرى أن الخلاف في الرأي والمعارضة السياسية ورفض البيعة للخليفة لا تقدح في العقيدة الدينية ولا تقلل من ولاء الفرقاء المختلفين للوطن الجامع لهم. وذلك شاهد على مشروعية المعارضة السياسية في النهج السياسي للإسلام والمسلمين.

وبعد.. هذا حق المعارضة في الإسلام فماذا عن حق المعارضة لدى النظام الأسدي. نقول إن النظام الأسدي هو نظام ديكتاتوري قمعي لا مثيل له في التاريخ البشري. فالرئيس هو الحاكم الأوحد وهو قائد السلطات الثلاث بلا منازع فهو المشروع الأول وهو القائد الأول وهو المعلم الأول...

فمنذ استيلاء النظام على السلطة منذ حوالي خمسين عاماً صادر الحريات وكمّ الأفواه واعتقل المعارضين وقتلهم في المعتقلات وفي الشوارع أيضاً في أحداث حماة وجسر الشغور وحلب بين عامي 1979-1982 حيث قتل عشرات الألوف من السوريين لمجرد معارضتهم له.

وكذلك فعل وريثه الكيماوي بشار الذي قتل من الشعب السوري من الأطفال والنساء والشيوخ أكثر من مائة ألف سوري واعتقل أكثر من 250 ألف وشرد أكثر من مليوني سوري في الخارج وأكثر من 7 مليون لاجئ داخل القطر وذلك كله في ثورة الكرامة والحرية التي انطلقت في 2011/3/15 وبعد أن تحررت الرقة في 2013/3/4 فرحنا بالنصر على الطاغية بشار الكيماوي ونظامه المستبد القمعي. ودخلت الكتائب مشكورة إلى المدينة واستقرت وفعلت ما فعلت.

وتزعمت المدينة الكتائب. فهل عاملت الناس كما يرضي الله؟! وهل تقبلت الرأي الآخر؟! والجواب على ذلك ترجمته بالرد العنيف على المظاهرات السلمية للشباب وجابهتها بالقسوة. فلا أعتقد بأن ذلك يرضي الله ورسوله.

وبعد كم تحتاج بلادنا من الثورات كي يستطيع أحدنا أن يستوعب الرأي الآخر، ولكي نبني بلدنا كما نحب ونشتهي على أسس الحرية والعدالة والرحمة والمساواة والإنسانية...؟!.

من حقوق الإنسان.. حق الملكية

أحمد المعيدي

إن الإنسان بفطرته محب للاستحواذ على الأشياء وامتلاكها، فمنذ بدء الحياة البشرية، ومع تطور الحياة الاجتماعية للإنسان وانتقاله من مرحلة الصيد، ثم الرعي، ثم الزراعة، تنبه إلى وجوب أن يتحصل على الأدوات التي يمكن أن تساعده على العيش، فبنى المسكن ليؤويه وسعى لإنشاء تجمعات بشرية في القرى والمدن، وأحس بضرورة التملك من أجل تطوير حياته الاقتصادية، ومع أن الملكية ابتداءً تختص بالفرد وهي حق طبيعي له، إلا أن لها وظيفة اجتماعية لجمهور الناس، فهي حق ومصدر استقرار، على مرِّ التاريخ، وقبل أن نتطرق إلى معرفة ما هي وسائل حماية هذا الحق، لابد لنا من التعرف على أنواع الملكية، وأسباب كسبها، فالملكية تكتسب إما بالإرث أو بالعقود أو بالهبة، أو بحكم قضائي أو بالتقادم المكسب أو بالاستيلاء المقنن، وتقع الملكية إما على العقارات كدور السكن والأراضي الزراعية، وإما أن تكون أموالاً غير منقولة، وهي الخارجة عن طبيعة العقارات، وقد حمى القانون الملكية من خلال النصوص المتعلقة بها حيث جاء في القانون المدني السوري المادة /768/ (لمالك الشيء وحده، في حدود القانون، حق استعماله واستغلاله والتصرف فيه). فعناصر حق الملكية وهي الاستعمال والاستغلال والتصرف، تجعل من هذا الحق أوسع الحقوق العينية نطاقاً، وبذلك يستجمع المالك كل السلطات التي يعطيها القانون للشخص على الشيء الذي يملكه، ولكن في حدود القانون، وفي حدود ما أعد له هذا الشيء من الاستعمال، والمادة /771/ (لا يجوز لأحد أن يحرم من ملكه إلا في الأحوال التي يقرها القانون وبالطريقة التي يرسمها ويكون ذلك في مقابل تعويض عادل)، فالحرمان أو الاستيلاء الذي يقع على عقار المالك أو جزء منه لا يجوز إلا من أجل المنفعة العامة (طريق عام ـ مدرسة ـ حديقة...) ومقابل تعويض عادل، وقد ذهب القانون إلى أكثر من ذلك، حيث منع الاستيلاء على أي عقار واكتساب أي حق عيني عليه طالما كان هذا العقار مسجلاً في السجل العقاري، الذي هو حجة على الكافة بما دون فيه، وقد جاء في المادة /835/ من القانون المدني السوري (لا يخول الاستيلاء ـ الحاصل من قبل الأشخاص ـ اكتساب أي حق من الحقوق العينية العقارية على عقار مسجل في السجل العقاري، أو بإدارة أملاك الدولة، ولا على الغابات والعقارات المتروكة المرفقة أو المحمية). هذا القيد على الاستيلاء جاء للأملاك الخاصة وكذلك المسجلة باسم الدولة لأنها أملاك عامة وعززت ذلك المادة /90/ من القانون المدني (1ـ تعتبر أموالاً عامة العقارات والمنقولات التي للدولة أو الأشخاص الاعتبارية العامة والتي تكون مخصصة لمنفعة عامة بالفعل أو بمقتضى قانون أو مرسوم. 2ـ وهذه الأموال لا يجوز التصرف فيها أو الحجز عليها أو تملكها بالتقادم). وقد يحتج البعض بالتقادم المكسب للحقوق غير أن القانون عالج ذلك بنص المادة /925/ مدني (لا يسري التقادم على الحقوق المقيدة في السجل العقاري أو التي هي تحت إدارة أملاك الدولة). والمادة /926/ (لا يكتسب بالتقادم أي حق على العقارات المتروكة والمحمية والمرفقة). إذاً فالقانون قد صان حق الملكية وحماه بموجب نصوص آمرة وملزمة إلا في الحدود التي أجازها للمنفعة العامة. ولم تقتصر الحماية على ما ورد في القوانين المدنية، بل أن الدساتير أيضاً قد حمت هذا الحق فجاء في الدستور السوري الصادر في عام 1973 في المادة /15/ (1ـ لا تنزع الملكية الفردية إلا للمنفعة العامة مقابل تعويض عادل وفقاً للقانون. 2ـ المصادرة العامة في الأموال ممنوعة. 3ـ لا تفرض المصادرة الخاصة إلا بحكم قضائي. 4ـ تجوز المصادرة الخاصة بقانون لقاء تعويض عادل).

وقد فرض القانون أيضاً عقوبات جزائية على الاعتداء على الأموال المملوكة للأشخاص كالسرقة مثلاً حيث جاء في قانون العقوبات السوري في تعريف السرقة المادة /621/ (1ـ السرقة هي أخذ مال الغير المنقول دون رضاه). وإن السرقة قد تكون عقوبتها الأشغال المؤبدة أو المؤقتة من خمس عشرة سنة إلى عشرين سنة إذا استجمعت الأحوال الآتية: أن تكون السرقة (آـ ليلاً ب ـ بفعل شخصين أو أكثر ج ـ بالدخول إلى مكان سكنى الناس بالخلع أو المفاتيح أو أدوات خاصة أو انتحال صفة موظف عام أو يكون السارقون مقنعون أو أحدهم يحمل سلاحاً ظاهراً أو أن يهدد أحدهم الأشخاص بالسلاح).

وعاقب القانون بالحبس على الأضرار التي تلحق بأملاك الدولة أو الأفراد من هدم وتخريب واغتصاب للعقارات المادة /716/ وحتى المادة /730/ من قانون العقوبات وحمى القانون أيضاً حق الملكية الأدبية والفكرية والفنية وعاقب على الاعتداء عليها في مواده /708/ وحتى /715/.

وقد أسهمت الشرعة الدولية في حماية حق الإنسان في الملكية حيث جاء في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان /1948/ المادة /17/ (1ـ لكل إنسان الحق في التملك بمفرده كما بالاشتراك مع الآخرين. 2ـ لا يجرد أي إنسان من ملكه تعسفاً).

وجاء في مشروع ميثاق حقوق الإنسان العربي 1986 المادة /30/ منه (تحمي الدولة الملكية الخاصة ولا يجوز المساس بهذا الحق تعسفاً ودون تعويض عادل).

وحث الإسلام على صون الأموال والملكية وحمايتها وعدم استعمالها إلا في الحالات المشروعة، والتي فيها منافع للناس وللشخص صاحب المال وعدم الإضرار بالناس بواسطتها، حيث جاء في القرآن الكريم (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون). البقرة /188/ كالسرقة والنصب وتقديم الرشوة والآية (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً) الكهف /46/ فالإسلام جعل من حق ملكية الأموال بأنواعها وسيلة للتمتع بالحياة وسبيلاً لمساعدة الناس المحتاجين وعدم استعمالها في ما يخالف شرع الله، وعاقب على سرقة أموال الناس والاعتداء على ملكيتها بأشد العقوبات في قول الله تعالى: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما). /المائدة /38/. وفي حديث رسول الله (ص): (كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه). وفي حديث آخر (يا أيها الناس، إنما ضلّ من كان قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها).

إذاً فحق الملكية هو من أهم حقوق الإنسان، وقد حمت الديانات السماوية هذا الحق، وكذلك القوانين الدولية، والدستورية، والعادية، وفرضت جزاءات قاسية على كل من يعتدي عليه، ولا يجوز الحرمان أو الانتقاص منه، إلا من أجل المصلحة العامة لقاء تعويض عادل.

تنشر "منازل" هذه الوثيقة للناشطة الحقوقية "رزان زيتونة" المأخوذة من صفحتها عن مجزرة الكيماوي في الغوطتين لأهميتها التاريخية..

البحث عن "الأحبة" بين وجوه المقابر الجماعية

رزان زيتونة

أحاول استرجاع تفاصيل ذلك اليوم ببطء شديد علّي أنفجر بالصراخ والنواح كما يفترض بشخص "طبيعي" أن يفعل. يرعبني الخدر الذي أحسّه في صدري والضباب الذي يلف الصور المتلاحقة في ذهني. ليس هكذا تكون ردّة الفعل بعد نهار حافل بالتعثر بالأجساد التي صفت إلى جانب بعضها البعض في الردهات الطويلة المعتمة، لفت بالأكفان البيضاء أو البطانيات القديمة، لا يظهر منها إلا وجوه مزرقّة ورغوة جمدت على زوايا الأفواه، وأحياناً خيط من الدماء يختلط بالزبد. على الجبين أو على الكفن، كتب رقم، أو اسم، أو كلمة "مجهول". في كل نقطة طبية على امتداد بلدات الغوطة التي استقبلت الشهداء والمصابين، الحكايات نفسها تتكرر والصور نفسها. وجوه من بقي صامداً من المسعفين الذين لم ينجُ معظمهم من التأثر بالغازات السامة، يروون مرة تلو الأخرى، كيف قاموا بخلع الأبواب ودخول المنازل ليجدوا الأطفال نائمين في أسرّتهم بهدوء وسكينة لن يستيقظوا منها أبداً. معظم الأطفال ماتوا وهم يحلمون. قليل منهم وصل للنقاط الطبية وتمكنوا من إسعافه. الرحيل الجماعي للعائلات هو الصورة الأكثر إلحاحاً. الأم والأب وأطفالهما. نقلوا من أسرّتهم إلى قبور جماعية ضمت رفاتهم. في إحدى مقابر زملكا، كان الأب يقف على قبر طويل يبدو بلا نهاية. هنا دفنت زوجته وطفله. وإلى جانبهما عائلة فلان، وعائلة فلان. وفكرت، إن كان بينه وبين نفسه يحسد العائلات التي ذهبت بجميع أفرادها إلى تلك القبور الضيقة ولم تترك وراءها من يعيش ألم الفقد. ولا تزال أصوات الاشتباكات قريبة جداً وعلى أشُدّها. ولا أحد من الحاضرين يكترث، وهم منهمكون في الحفر وإهالة التراب على الأحبة. مشرف الدفن يشرح كيف تتلاصق الجثامين التي بلغ تعدادها 140 في هذه المقبرة الصغيرة. صوّر صوّر، يقول. هنا آل فلان، ويقوم بتعداد أسماء أفراد العائلة، وهنا آل فلان.. ونحن ننظر وكأننا يجب أن نرى العائلة ونلقي التحية على الوالدين ونداعب الأطفال، لكننا لا نرى إلا تراباً غير مستوٍ ويضع أغصان جافة من نبات الآس رميت فوقه كيفما اتُّفق. في ردهات تجميع الجثامين في كل بلدة، تجمّع الأهالي للبحث عن أبنائهم. تدخل سيدة مسنة وهي تتوسل للموجودين أن يرشدوها إلى جثمان أبنائها وإخوتها إن كانوا قد استشهدوا. يساعدها الشبان في رفع الغطاء عن وجوه صف الشهداء المجهولين الذين ينتظرون من يتعرف إليهم. شهيداً تلو الآخر تمر عليهم. تشهق لدى رؤية أحدهم، ثم تتمالك نفسها وتقول ليس هو. تنتهي من البحث، وتنطق بالحمد بصوتها المتهدج لأن احتمالات موت أحبتها قلّت.. بمعدل نقطة طبية واحدة. في الأغلبية العظمى من الحالات، تفرق أفراد العائلة بين النقاط الطبية على امتداد الغوطة. ومن شفي منهم واستعاد قواه، بدأ رحلة البحث عن عائلته من بلدة إلى بلدة. كان الجميع غاضبين، بالكاد يتمالكون أنفسهم قبل أن ينهاروا بالبكاء. كلما فشلوا في العثور على أحبتهم في الردهات بين المصابين والشهداء، أو في قوائم الأسماء التي تمكن الإداريون من تسجيلها. حال المصابين ليس بأفضل كثيراً، خاصة الأطفال. بمجرد التوجه بكلمة للطفل يقلب شفتيه الصغيرتين ويحاول كبت صوت بكائه وكأننا سنعاقبه إن جاهر بقهره ولعن العالم بمن فيه. يبدأ بالسؤال عن والديه ولا أحد يملك الجواب. لا أحد يقوى على الجواب. لا أحد أصلاً يستوعب كل ما يحصل فعلاً. هذه بلاد العجائب والصدف التي لا يفترض أن تحصل بشكل متواتر وتنقل إلى اعتياد. إلى جانب إحدى النقاط الطبية وقف شخص وهو يبكي ويلوح بيديه. قال إنه أنقذ ثلاث سيدات إلى المشفى، في الطريق وبسبب الاستعجال والارتباك دهس شخصاً فقتله، وعندما وصل إلى المشفى ركن شاحنته الصغيرة أمامها بانتظار أن يبت بأمره بخصوص الشخص الذي دهس، وبعد دقائق أغارت طائرة الميغ واختارت تلك النقطة بالذات التي تقف فيها الشاحنة فأحالتها ركاماً! من يمكن أن تحصل معه أحداث مماثلة خلال ساعات قليلة من حياته ويبقى على إيمانه بأن الدنيا ليست على أبواب القيامة؟! من لايزال يحتفظ بشيء من القوة والتماسك، ينفجر في موجة غضب تجاه نفسه والآخرين. لأن أحداً لا يقوى على التخيل أن المئات من الشهداء كان بالإمكان إنقاذهم، لو توفر المزيد من الدواء، لو أن "الجهات المانحة" لم تتمنع عن المساعدة في تجهيز نقاط طبية خاصة بمصابي الكيماوي. حتى الأطباء غاضبون من أنفسهم، من اضطرارهم للاختيار بين مصاب وآخر حسب قرعة الحياة والموت في سوريا الثورة. كتب الطبيب ماجد على الفيسبوك: "بكيت وبكيت اليوم وأنا أستقبل تبرعات الأجواد والكرماء الذين لم يقتنعوا أن المشروع الذي قدمناه منذ أربعة أشهر لتجهيز نقطة للتعامل مع إصابات الكيماوي هو ضرورة واليوم اقتنعوا بعد مئات الشهداء.. بكيت وأنا أوقع على موافقات بقبض هذه المبالغ التي دفعنا ثمناً لقبضها صور الشهداء".. المشكلة ليست هنا فقط، بل في قناعتنا واعتيادنا على أن كل شيء أصبح ممكناً، وأن السبيل الوحيد لمواجهته ولو نسبياً، هو في الاستعداد له، الاستعداد للقصف، الاستعداد للجوع، الاستعداد للكيماوي! هذا أقصى ما يمكن أن نفعله. يعني أن تصبح المحادثة التالية مع أطفالنا قبل النوم من بديهيات حياتنا. ابني اغسل أسنانك واذهب إلى سريرك فقد تأخر الوقت. ولا تشرب الكثير من الماء قبل النوم! وإذا سمعت هدير الطائرة انزل إلى القبو، وإذا شممت رائحة غير طبيعية اصعد إلى السطح، وإذا لم تجد الوقت كيف تفعل أي شيء، فاعلم أني أحبك كثيراً، لكن ليس باليد حيلة. العالم قذر ومتوحش. ستفهم يوماً حين تكبر، إذا أتيح لك أن تكبر! تصبح على وطن يا بني.

23 آب 2013

تطلب صحيفة منازل من: مكتبة الخابور - محل كشمير (جانب مقهى آبل) - محل نينوى (مقابل المجمع الحكومي)

قبل أربعة أشهر من استشهاده في ملحمة الرقة الكبرى... وصية الشهيد الزنّا

بسم الله الرحمن الرحيم وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيد الخلق نبينا وحبيبنا وسيد البشرية محمد صلى الله عليه وسلم.

أنا العبد الفقير الضعيف مصطفى عبد الله العبود. هذه وصيتي لكم لأنني لم أعد أتحمل ظلم هذا النظام الفاجر الذي استباح العباد والبلاد.. هي أمانة واستردها صاحبها (الله عز وجل).

زوجتي الحبيبة سامحيني.. لأنني كنت دائماً على خلاف معك بخصوص خروجي في المظاهرات لأقول كلمة الحق.. وأعرف أنك كنتِ من مودتك وخوفكِ علي.. ولكن احمدي الله وكوني زوجة صالحة وصابرة بقضاء الله وقدره.. والأولاد أمانة في عنقك أعطيهم ما يحتاجون ولا تقصري معهم..

أمي الغالية امسحي دموعك ولا تحزني فإن شاء الله أنا الآن في رياض الجنة مع من سبقني من الشهداء، حبيبتي يا غالية سأكون شفيعاً لك ولأحبابي فارفعي رأسك أمام العالم كله لأن الله أكرمك بشهيد سقى بدمائه جذور الحرية.....

أخوتي الأعزاء الأوفياء امسحوا دموعكم وكونوا أقوياء كما عهدتكم، هذا هو الامتحان الصعب الذي سيمر بأغلبية الناس فكونوا صابرين راضين بقضاء الله وقدره.... عهداً سأشفع لكم يوم القيامة إن شاء الله. (لكم الله يا نور عيني).

أقربائي أحبتي أصدقائي الأوفياء رجائي أن تسامحوني إن أخطأت بحق أحدكم يوماً وأكملوا درب الحرية إن لم يكن من أجلكم فليكن ذلك من أجل أولادكم وشهدائكم الذين سقطوا لإعلاء كلمة الحق ووقف الفساد والظلم الذي انتشر في أرجاء سورية الحبيبة.....

لا تيأسوا ولا تتوقفوا فالنصر لهذا الشعب العظيم وهو آتٍ لا محال.

كونوا إخوة فيما بينكم ولا تختلفوا وكونوا عوناً لبعضكم وحدوا صفوفكم واجمعوا كلمتكم.. لا تنسوا الصلاة والدعاء فهي سلاحنا وليس لنا إلا الله حافظوا على أن تموتوا على الإيمان فلا يعرف أحدٌ بأي أرض يموت.

إخوتي يا نبض قلبي اصبروا وصابروا.... سأكون مع الحور العين فلا تفقدوا صوابكم وتصرفوا بحزم فأنا شفيعكم بإذن الله.. لا تنسوني ولا تنسوا من قبلي... اجعلونا في ذاكرتكم دوماً وبارك الله لكم بأعماركم. ومبارك لكل من سيحضر الاحتفال عند إسقاط الطاغية المجرم الذي سيحاسبه أمثالي يوم القيامة.

الرقة: 2011/11/15

منازل الغياب

الشهيد البطل مصطفى الزنّا

منذ خروجه المبكر في تظاهرات الثورة السورية، ثورة الحرية والكرامة، كان يفكر بإيمان مطلق في الشهادة، فالحرية لا تأتي عبثاً، والكرامة لا تأتي من فراغ، ونيلهما يحتاج إلى بذل الغالي والنفيس.. هكذا يفكر الأبطال وهم يصنعون تأريخاً جديداً لبلادهم.

خرج الزنّا مرة.. مرتين.. ثلاث.. وهو يحلم بنيل الشهادة، لكنه في ملحمة الرقة الكبرى، يوم تشييع الشهيد البطل علي البابنسي، كان أكثر من أيقونة زيّنت سماء مدينة الرقة، فنال الشهادة وهو يتلقى بصدره العاري طلقات الغدر متحدياً الظلم والطغيان.

ولد الشهيد مصطفى عبد الله العبود (الزنّا) في مدينة الرقة بتاريخ 1982/8/2 ونال شرف الشهادة يوم الجمعة 2012/3/16. وهو متزوج وله ولدان.

أسرة التحرير: ابراهيم العلوش - ماجد رشيد العويد - يوسف دعيس
الإشراف الفني: مصطفى سليمان - ياسر أبو عمار
البريد الإلكتروني: manazel2013@gmail.com (المراسلات باسم أسرة التحرير)
الآراء الواردة تعبر عن آراء كتابها وليس بالضرورة عن رأي الصحيفة
تمت الطباعة في مطبعة أطلس